

في الشعر المهموس

للأستاذ حسين الظريف

—

ليس من البحث في شيء أن نتناول الظاهرة في العلم أو في الأدب أو في الاجتماع، ونغفل المصدر الذي انبعث عنه. كشأن الحديث الذي دار وما يزال دائراً على الشعر المهموس في (الرسالة) و (الثقافة) دون أن يصل الناقد والنقود إلى نقطة اتصال، يتم فيها بينهما التفاهم على ما اختلفا فيه ولا يزالان على خلاف ولو أن كلا منهما اتجه بالبحث إلى تعيين مصدر هذا الشعر في أدب المهجر، لصاقت بينهما شقة الخلاف، ولقاما بتميل جروح كثيرة. وما كان القول بتخلف الشعر في مصر، أو بنشأ هذا التخلف، إلا علة السير على الهامش وترك الصميم. وهذا ما رغبت في أن أقول كلمتي لإملاء فراغ الموضوع

والواقع أن لشعر المهجر طابعا خاصا يعرف به. لا من حيث مبادئه ومعانيه فحسب، ولكن من حيثية أخرى، هي ذلك الإيقاع الذي يقرع به الأسماع، أو مدى ذبذبه على حد التعبير العلمي. وهذا ما يحمل على استصواب تسمية هذا الشعر بالشعر المهموس، وتخطئة نعته بشعر الحنين. لأن هذه التسمية الأخيرة ترتكن إلى انفعال الشاعر بينما تعتمد التسمية الأولى على النزعة الشعرية العامة في قطر بعينه. فال موضوع يدور على هذه الظاهرة العامة في شعر المهجر، تاركا وراءه البحث عن كل انفعال خاص كالحنين - لا يقوم إلا إذا قام الباعث عليه. وما يظهر إلا الحاجة ثم يختفي

وأنا أرد نزعة الحمس هذه إلى شعر الشقيقة سورية؛ لأنها هي الأخرى تتميز بهذا الضرب من الشعر، وإن كانت تسير فيه خلف الشعر في المهجر. ويظهر أن شعراء الشقيقة وجدوا في العالم الجديد ما غذا فيهم نزعة الحمس هذه، فإذا هي علامته الفارقة في الشعر على اختلاف أغراضه وقنونه

ومعنى نجد ظاهرة الحمس في النثر إلى جانب ظهورها في الشعر، ثم نجد في فنون الغناء السوري، كما نجد في لهجة النخاطب. فالقوة الموسيقية في الإعراب عن الخواطر والانفعالات؛

وأعني بها ما اصطللنا عليه بكلمة (الحمس) لا تكاد تختلف في ضروب هذه الأساليب البيانية من شعر ونثر وغناء ونخاطب وقد أطلت التفكير في مصدر هذه الطاقة الموسيقية فلم أجده إلا في طبيعة البلاد السورية، فإنها هي المصدر الذي صدرت عنه هذه الظاهرة وانسجمت على كافة طرق التعبير. لقد فعلت طبيعة البلاد فعلها الخاص في أعصاب هؤلاء الشعراء وقسرت منها إلى فنون القول موزونا وغير موزون

يقابل ذلك ما ينتج من العراق من شعر ونثر، وما يألف من ضروب الغناء؛ فإنه يقف في الطرف الثاني من المحور، حيث يقف على طرفه الآخر أدب المهجر. إن الأدب في العراق كالغناء فيه، يعتمد في إيصال الشعور على قوة اللهجة؛ فإذا كان أدب المهجر عس شعور القاريء أو السامع برفق ولين، فإن أدب العراق لا يحسه إلا بشدة. ويقف بين هذين أدب مصر، فلا هو بالضعيف ولا بالعنيف

ولا عمل للقول بتخلف الشعر في مصر لأن رنة الإيقاع فيه غير هادئة؛ فالشعر لا يقاس بهذا المقياس، وإنما ينظر في مدى ارتفاعه على أنه أسلوب بيان ومجموعة خواطر. أما قوة اللهجة فيه فإنها مظهر الحالة العصبية التي كان عليها الشاعر عند بثائه ببيت الشعر. وليست هذه الحالة بجزء من الشعر لتكون جزءاً مما يقاس به مدى ارتفاعه وطول بقائه، ويحكم له أو عليه

وقد نرى الحمس والجرس في بعض قصائد الشاعر فلا يصطبغ شعره بهذا اللون، لأنه وليد حالة روحية خاصة تأتلف وطبيعة الموضوع القول فيه. ومركز الثقل فيما دار ويدور عليه الحديث على لسان الرسالة وزميلتها الثقافة، هو ندرة ما في مصر من هذا الشعر وكثرة ما في أدب المهجر منه. تلك الظاهرة التي أرجناها إلى طبيعة البلاد. فشاعر المهجر عاش في وسط لا ترقى فيه الأعصاب، ومن ثم كان تصويره وتعبيره غير مرهق لأعصاب غيره. أما الشاعر في مصر أو في العراق فإنه يحاط من حمارة الصيف بما يتعب الأعصاب ويبعد بها عن أن تنفعل إلا بأبلغ المؤثرات. وهو بمدى تأثره هذه مسوق إلى التهويل عند محاولة التأثير فيمن سواه. فكان كل من أدبه وغنائه يعتمد في التأثير على ارتفاع الصوت فيه وإن صم الآذان